الحريريّ وجهوده في التنقية اللغويّة

من خلال كتابه (دُرَّة الغوّاص في أوهام الخواصّ)

أ.د. وليد محمّد السراقبي(*)

١- بين يدي لحن العامّة والخاصّة:

غـير خـافٍ ولا منكرٍ أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية تنمو وتزدهر وتتعافى بنمو المجتمع الذي يتكلَّمهـا، وتهوي بهُـويٍّ متكلميها وانحدارهم في أودية التخلّـف والخطأ حتى تندثر معالم النقاء فيها أو تكاد.

وغـير خـافٍ أيضًا أنّ المجتمعات تنقسـم طبقتين أساسـيّتين هما: طبقـة العامَّة، وهم عامَّة الناس وأخلاطهم، وطبقة الخاصّة وتشـمل هذه الطبقة المثقّفين والمتعلّمين والكتّاب وأضرابهـم. وما مِن شـكٍ أن لكلّ طبقة منهمـا لغتها التي تتفاهم بهـا، وتقضي حوائجها ومآربها بها، وتختلف اللغتان فيما بينهما في مسـتوى النقاء اللغوي الذي يقرب هذه اللغة أو يبعدها من اللغة النموذجية المحكومة بقواعد وأصول تُراعَى في أثناء عملية التواصل من جهة، أو الإبداع من جهة أخرى.

(*) جامعة حماة - كلّيّة الآداب - قسم اللغة العربيّة.

والمجتمعُ العربيُّ ليس بدعًـا من المجتمعات، فقد كان منـذ الجاهلية مجتمعًا يضـم طبقتي العامّة والخاصّـة، وكان لكلٍّ منهما لغته. وعلى الرغم من أننا لا نملك من أمثلة «الخلل اللغويّ» ما يعود إلى ما قبل الإسـلام، وربما كان ذلك عائدًا إلى بعدٍ عن الاختلاط بعناصر ليسـت من البيئة العربية مكانًا وجنسًا.

ولعـلَّ أول صورة من صـور الخلل اللغوي ما حدث والنبيّ(صلى الله عليه وسـلم) بين ظهرانَيْ أمتـه؛ فقد قرأ أحد الأعراب أمامه فلحن في قراءته، فوجَّه النبيُّ(صلى الله عليه وسـلم) الكلام إلى مَنْ حوله يحضُّهم على الأخذ بيـد الرجل، ويتعهّدُونه بـــ «التهذيب اللغوي»، وقال: «أرشـدوا أخاكم فإنَّـهُ قد ضـلَّ [1]». فكانت حادثـة «اللحن» هذه أول حادثـة تُروى عن خطأ صاحبهـا في القراءة. يقول أبو الطيب اللغوي: «... فقد رُوِّينا أن رجلًا لحن بحضرته فقال: أرشدوا أخاكم [2]».

ثـمَّ أخـذ «اللحـن» ينسربُ إلى ألسـنة العامَّة بعد أن حصل التغيُّر والاختلاط بغير العرب، حتى أصبـحَ ظاهـرةً أَفزَعَتْ أوليـاءَ الأُمُـورِ من جهةٍ، وأربـاب العلم من جهةٍ أُخـرَى، فَوَلَّدَ ذلك اندفاعًا نحـو ضبط «الحال اللغوية» بِوَضعِ القواعد التي تحمـي اللُّغَةَ مِـنَ الانجـرافِ في أَودِيَـةِ «اللَّحنِ» المختلفة، وتعصم الألسـنة من الالتواء فتعجز عن الإبانة، وتمنعها من الانحراف اللساني المفضي إلى العجز في تحقيق التواصل.

وكان «الإعـراب» أوّل ما اختلَّ من كلام العرب فأحـوج إلى التعلُّـم. «فقد فشـا الفسـادُ في اللغة العربية، واستبان منها في الإعراب الذي هو حَلْيها والموضح لمعانيها[3]». وبهذا تعلَّل «أسـبقية نشأة النحو على غيره من لحن العامة [4]».

والحقيقة أن مسـتويات اللحن متعدِّدة؛ فهي تعم اسـتعمال اللفـظ الدخيل، وتنكُّب سـنن التركيب العربي صوتًـا، وصيغةً، ونظـام جملة، ودلالة، وحركة إعراب.

واللحن الذي هو الخطأ كان ظهوره في العصر الإسلامي المبكر، بسبب تسرُّب العبيد والجواري إلى إدارة منـازل العرب[5]. ويفسَّر هذا اللحن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة بالمؤثرات الآتية[6]:

١- تجاور بعض الأصوات وتقاربها.

٢- النبر.

٣- التخلص من التقاء الساكنين.

٤- القياس الخاطئ.

٥- التطور الدلالي.

ويواجهنا في قضية «اللحن = الخطأ» مصطلحان متضـادان، الأول مصطلـح «العامّة»، وهم الذين أسرع إليهـم اللحن. والثانـي: مصطلح الخاصة. وليس يراد بالعامّة «الدَّهْماء والسُّـقّاط، وليسوا (رجـل الشـارع)، في اصطلاحنا الحديـث؛ وإنما هم المثقفون الذين تسرَّبت إليهم أخطاء من هؤلاء العلمـاء، أو مِـنْ تصحيفات النسَّـاخ، ومن هؤلاء شـعراء وكتّـاب[7]». قـال الجاحظ كاشـفًا دلالة مصطلـح العامة: «إذا سـمعتموني أذكر العوامّ فإنّي لسـت أعني الفلاحـين والحُشْـوَةَ والصُّنَّاع والباعة، ولسـتُ أعني الأكراد في الجبال وسـكان الجزائـر في البحـار... وأمَّا العوامّ مـن أهل ملّتنا ودعوتنـا ولغتنـا وأدبنا وأخلاقنـا، فالطبقة التي

(١) الخصائص: ٢/٨.

(٢) مراتب النحويين: ١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص: ١.

(٤) لحن العامة في ضوء علم اللغة الحديث: ٣٦.

(٥) العربية: يوهان فك: ١٠، ١٢.

(٦) لحن العامة في ضوء علم اللغة الحديث: ١١.

(٧)ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٣، ١٩٥٧م، ص:٨.

عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصَّــة منًّا، على أن الخاصَّة تتفاضل في طبقاتٍ أيضًا [٨]».

وهــذهِ اللغةُ العاميَّــةُ التي أخذ يتكلم بها عامة الناس، دفعــت بعض اللغويين إلى أن يســعوا إلى صيانــة اللغــة النموذجية «الفصيحــة » من بلايا العاميــة وســقطاتها، وشرعــوا في تصنيــف كتب وسِمَتْ بـــ «لحن العامة [٩]»، وعُزِي أول كتاب في هذا الميدان هو كتاب «لحن العوام[١٠] » للكســائي (ت ١٨٩ هــ). وأسهم في علاج هذا اللحن مؤلفون آخرون غير الكســائي، ومنهم : أبــو عبيدة معمر بــن المثنــى (ت ٢١٠ هــ) ، وعبد الملــك ابن قريب الأصمعي (ت ٢١٦ هــ) ، وأبو نصر أحمد بن حاتم (ت ٢٣١ هــ) ، وأبو عثمان المازني (ت ٢٤٧ هــ)، وأبو حاتم السجســتاني (ت ٢٥٥ هــ) وأبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤ هــ).وقد تغيَّا هؤلاء ردَّ مَنْ تنكَّبوا جادة الفصحى إلى المســتوى الصوابيّ، وهي غاية يســتوي في التطلُّع إليها المتشدِّدون من علماء اللغة والمتسمِّحون[١١].

ولكن مســألة انتشــار اللحــن= الخطأ لم يكن مقصــورًا على الطبقة العامة التي ســبق أن وقفنا عنــد دلالتهــا، بل سرى ذلك على ألســنة «خواص النــاس والعلمــاء »، فحفز هذا الأمــر علماء اللغة إلى تصنيــف كتب تعالج لحــنَ الخاصَّة، حتى إن العامية قد افترشــت الطبقتــين العامة والخاصة. فلم يعد بينهما من فرق كبير[١٢].

وكان كتــاب «دُرَّة الغوّاصِ في أوهام الخواصّ » لأبي محمّد، القاســم بن عــلي بن محمّد بن عثمان الحريريّ[١٣] البصريّ المَشَانيّ[١٤] ممثّل هذا النوع من التصنيف.

٢- الحريري،حياته وآثاره:

ولــد الحريــري ســنة ٤٤٠ هـــ، وأخــذ يغشى مجالــس العلــم، فقــرأ عــلى القصبانــي وعلي بن فضــال المجاشــعي وغيرهمــا. وعُرف عنــه ذكاء وفطنة وفصاحة وبلاغة، وما ألّفه يشــهد بفضله، ويُقِرُّ بنبله[١٥]. قال السيوطي منوِّهًا بعلو منزلته: « وكفاه شــاهدًا المقامات التي أبرَّ بها على الأوائل، وأعجــز الأواخــر[١٦] ». أثنى عليه الفــيروز آبادي فقــال: « إمــام في الفصاحــة والبلاغــة ورشــاقة الألفاظ »[١٧]. غادر الحريري الدنيا سنة ٥١٥ هــ / أو ٥١٦ هــ ، وخلَّف من الآثار ما يأتي[١٨]:

١- درَّة الغــواص في أوهام الخواص ، وهو كتابنا الذي سنخصه بحديث مفصل.

٢- ديوان ترسُّل.

(٨) البيان والتبين : ١/١٣٧.

(٩) يُنظر: لحن العامة في ضوء علم اللغة الحديث: ص:٣.

(١٠) نشره أوَّل مرة المستشرق الألماني بروكلمان، مجلة (الآشوريات), العدد١٣,ص-٢٩-٤٦. ثم حققه العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي ونشره في القاهرة، ١٣٤٤ ضمن رسائل ثلاث. وسماه د.رمضان عبد التواب مرة (ما تلحن فيه العامة)، وأخرى (ما تلحن فيه العوام). يُنظر : لحن العامة والتطور اللغوي: ص١٠٣، و١٠٩.

(١١) مصنَّفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر الهجري: ٧٠.

(١٢) المعجم العربي، نشأته وتطوره : ٩٦.

(١٣) الحريري نسبة إلى صناعة الحرير.

(١٤) المشاني : نسبة إلى "مشان" إحدى المحالِّ القريبة من البصرة,وفيها تمر كثير وفواكه ورطب. معجم البلدان ٥/ ١٣١.

(١٥) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : ٢/ ٢٥٧ و ٢٥٨.

(١٦) المصدر السابق نفسه : ٢/٢٥٧.

(١٧) البلغة، ص:١٨٧. ترجمته في : إنباه الرواة ٣/ ٢٣، وبغية الوعاة ٢/ ٢٥٧ ، ومعجم الأدباء ٢٢٠٢-٢٢١٦، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ٣:٢٣-٢٧، ترجمة رقم (٥٥١)، وشذرات الذهب ٦: ٨١، والأعلام ٦: ١٢ ، ومعجم المؤلفين ٨: ١٠٨.

(١٨) البلغة في تاريخ أئمة اللغة: ١٨٧ و ١٨٨، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢/٢٥٧ ٢٥٩.

٣- ديوان شعر.
٤- المقامات.
٥- مُلْحة الإعراب وشرحها[١٩].

٣- درة الغواص [٢٠] : دراسة وصفية:

جاء كتـاب « درَّة الغواص في أوهام الخواص » في الطبعة الأوربية التي أخرجها المسـتشرق الألماني هنريش توربيكه سـنة (١٨٧١م)، وهي الطبعة التي كان معوَّلنا عليها= في مئتين وتسع صفحات لمتن الدرّة، وألحق بها:

١- فهرس الألفاظ المفردة (٢١٠- ٢٢٣).
٢- فهـرس أسـماء الرجـال والقبائـل والمواضع (٢٢٣- ٢٣٨).
٣- فروق النسخ (٥- ٥١) ، وهي باللغة الألمانية.

قدّم الحريري لكتابه ببيان المقصد من تأليفه، فقال : «... فإني رأيت كثيرًا ممن تسـنَّموا أسنمة الرّتبِ، وتوسَّـموا بسـمة الأدب، قد ضاهَوا العامّة في بعض ما يفرُطُ من كلامهم، وترعَفُ به مَراعِفُ أقلامهـم، مما إذا عُثِرَ عليه، وأُثِـرَ عن المعزوِّ إليه، خفض قَـدْرَ العِلْية، ووصـمَ ذا الحِلْيـة، فدعاني الأنَفُ لنباهة أخطارهم، والكَلَفُ بإطابة أخبارهم، إلى أنْ أدرأ عنهـمُ الشُّـبَهَ، وأبيِّن مـا التبس عليهم واشـتبهَ، لألتحـقَ بمن زكَّـى أُكْل غَرْسـه، وأحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسـه، فألَّفْتُ هذا الكتاب تبصرةً لمن تبصَّر، وتذكرةً لمن أراد أنْ يذّكَّر، وسميته (دُرَّة الغـوصِّ في أوهام الخواصِّ). وهأنا قدْ أودعتُه من النُّخـبِ كلَّ لبابٍ، ومن النكـتِ ما لا يوجد منتظمًا في كتـاب. هـذا إلى ما لمعته به من النـوادر اللائقة بمواضعها، والحكايات الواقعة في مواقعها [٢١]».

فالكتـاب «درّة » لا يصـل إليهـا وينالها إلَّا مَنْ يبالـغ في الغوص من أجلها. وهـو لا يلقي بالًا إلى يهِـمُ فيه عامة مثقّفي عصره أو جماهير الشـعب العامـة؛ فقـد أُلفـت في تتبع أخطاء هـذه الطبقة ذات الجـمِّ الغفير مؤلفات سـبقه إليها أصحابها، لكن«درّة » الحريري تسـتهدف أوهام عِلْية القوم من كتّاب وشـعراء، وهم الطبقة العالية التي كان الحريري نفسه يفيء إليها أصلًا ورتبةً[٢٢].

يُعدُّ الكتاب أهم أعمال الحريري، وأبرز الكتب اللغوية التي تنطق بانحطاط المستوى اللغوي[٢٣]، ولـدى بعض الطبقـات المثقّفة عـلى نحو أخصّ، فـكان هذا الكتاب «مرآة » أبرزت ما اعترى بعض ألسنة الكُتَّابِ والنُّحَاةِ والشُّعَرَاءِ من خلل وأوهام، وما اكتنـف واقع اللغـة العربية آنئـذ. وهو أبرز الكتب التي جعل أصحابها مبدأ «التنقية اللغوية » لخاصَّةِ القوم، هدفها الأوّل والأخير،فقد كان «لكل إقليم أخطاؤه الخاصَّة ولهجاته المنحرفة[٢٤]» .

يرتكـزُ منهجُـهُ العام على فَـرشِ مَوَاطن الخلل

(١٩) صدر الكتاب غير مرة، لعل أولها سنة ١٢٩٦هـ عن مطبعة حسن أحمد الطوخي. وطبع في مطبعة إحياء الكتب العربية، مصر، ١٣٤٥هـ. وطُبِعَ ومتن الآجرومية في كتاب واحد عن دار الصميعي، الرياض ، ط١/ ١٩٩٨م.

(٢٠) طبع الكتاب في مصر سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، وهي أقدم الطبعات. ثم طبعها (هنريش توربيكه) في ليبزغ سنة ١٨٧١ وقدم لها بمقدمة. ثم طُبِعَ في مطبعة الجوائب في القسطنطينية سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م. وطبع طبعة أخيرة بتحقيق عبد الحفيظ فرغلي عليّ القرنيّ، دار الجيل- مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م، وأُلحق بها شرحها للشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، وحاشيتان على درة الغواص لابن برِّي (ت ٥٨٢هـ) ومعاصره حجة الدين أبي عبد الله بن محمد بن ظفر الصقلي (ت ٥٦٥هـ) ، والتكملة والذيل لأبي منصور موهوب بن أبي طاهر الجواليقي (ت ٥٦٩ هـ)، وكتاب الملاحن، لابن دريد (ت ٣٢١هـ).

(٢١) درّة الغواص في أوهام الخواص :ص ٣.
(٢٢) العربية: يوهان فك، ص : ٢١٢.
(٢٣) المرجع نفسه، ص: ٢١٢.
(٢٤) حواشي ابن برِّي وابن ظفر، ص: ٤٤.

والوهم بادئًا ذلك بقولـه: « ويقولون»[٢٥]، و«من أوهامهـم [٢٦]»، ويورد اللفـظ أو التركيب موطن الوهـم ، فيـشرح دلالته وفـق وَهْـم الناطقين به ليخلـص إلى عـرض وجه الصواب فيـه، والتدليل عليه.

ويجلـد في كثير من المواضـع أولئك الواهمين في الاستعمال اللغوي المفرد أو المركب، ويُشَنِّع عليهم فيقـول :«... وهو خطأ فاحشٌ ولحنٌ شـنيعٌ...[٢٧]» ، و « فيتوهَّمون وهمَ مَنْ لم يستقرِ كلام العرب ولا عشـا إلى جذوة الأدب... [٢٨]»، و «هو لحن فاحشٌ وغلطٌ شـائنٌ ... [٢٩]»، و «فمن أوهامهم الفاضحة وأغلاطهم الواضحـة أنهم يقولون... [٣٠]»، و«هي من ألفاظ الأنبـاط ومفاضح الأغلاط [٣١]»، و «هو وهمٌ مشين، وخطأٌ مستبين[٣٢] ». وبعد ذكره محلّ الخطـأ وموضع الوهم يقول: «ووجه الكلام[٣٣] »، و «الصـواب... [٣٤]» ، و«والصواب عند النحويين البصريـين[٣٥] »، و«الصوابُ أن يقـال...[٣٦] »، أو يقول :«...والمسـموع في هذا المثـل[٣٧] »، و «وجه القـول...[٣٨] »، فيلاحظ المتعمِّـق في الكتاب أنه في تصحيحه يشير إلى الصواب، أو إلى وجه القول، أو إلى أصحاب المذهب النحوي الذين يجيزون هذا أو ذاك، أو يورد الصيغة المسموعة ، وهذا خاص بما كان نصًّا مرويًّا على غير وجهه، كأن يكون مثلًا.

ولـم يَهدِّي الحريـري في كتابه « الدرَّة » بصوى منهـج معين، ولم يلزمْ فيـه ترتيبًا خاصًّا[٣٩]؛ فلا يقـف الدارس على تصنيف للأوهام التي قصد إلى تنقية لغة المجتمع آنئذ منها، فليس فيه قسمة إلى:

١- أوهام صوتية.

٢- أوهام بنيوية.

٣- أوهام نحوية

٤- أوهام دلالية

وكان لهذا الخلل المنهجي أثره الواضح في أكثر الكتب التي شرحته أو كانت حواشي عليه[٤٠].

وقد كان«درّة الغواص » شبيهًا بـــ «الفصيح» لثعلب، وشرحـه للهروي، وشرح الخفاجي للدرَّة، وبحر العوام لابن الحنبـليّ، في عدم إفرادها للحن الـدلالي بابًا خاصًـا[٤١]. وعلى حـين نهج الفصيح وشرحـه نهجًـا تقسـيميًّا ضَـمَّ مسـائل الصرف والأبنيـة وبعـض الأمثـال، نجـد«درة الغواص» وشرحها، و«بحر العوّام » لا تسير على نظام معين.

ومنهجه «امتداد لمناهج أسلافه اللغويين الذين عُرِفوا بالتشـديد في مقياس الصواب اللغوي[٤٢]»، ومنهـم الكسـائي (ت ١٨٩هـــ)، والأصمعي (ت ٢١٦هـ)، وابن السـكيت (ت ٢٤٤هـ)، وغيرهم. وهو كذلك أبرز كتـب التنقية اللغوية التي عرفها

(٢٥) درّة الغواص، ص: ٦، ٨، ٩.
(٢٦) المصدر نفسُهُ : ١٣.
(٢٧) المصدر نفسُهُ : ٨١.
(٢٨) المصدر نفسُهُ : ٦٩، وص: ٥٤، ٥٢.
(٢٩) المصدر نفسُهُ : ١٠.
(٣٠) المصدر نفسُهُ : ١٤٩.
(٣١) المصدر نفسُهُ: ٣ .
(٣٢) المصدر نفسُهُ: ١٥٣ .
(٣٣) المصدر نفسُهُ: ١٥٢
(٣٤) المصدر نفسُهُ:١٥٣ .
(٣٥) المصدر نفسُهُ:١٥٢ .
(٣٦) المصدر نفسُهُ:١٥٣ .
(٣٧) المصدر نفسُهُ: ١٤٦ .
(٣٨) المصدر نفسُهُ: ١٣٨ .

(٣٩) المعجم العربي ١/٩٧، ومصنَّفات اللحن والتثقيف اللغوي، ص: ٦٠.
(٤٠) المعجم العربي ١/ ٩٧.
(٤١) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ٦٠.
(٤٢) حواشي ابن بري وابن ظفر، ص: ٤٤.

القرن الهجري الخامس[٤٣].

ويعـدُّ «الـدرَّة » ومـا دار في فلكهـا من شروح أو حواشٍ، أنموذجًا واضحًا لكتب التنقية اللغوية في كثـرة اسـتطرادها، واحتفائهـا بقضايا الأدبِ والنَّحوِ والصرف والبلاغة[٤٤]. ولعلنا نجلو بعض ذلك في سَرْد بعض النماذج من الكتابِ نَفسِهِ.

ذكرنا من قبل أنه يبدأ نقده بقوله:«ويقولون» فيـورد الخطأ لفظًـا كان أم تركيبًا، ويشرح مراد الواهمين به، ثم ينبري للتصحيح والاسـتدلال على مذهبه.

جـاء في كتـاب «درّة الغـوّاص » : «ويقولـون للمتتابع: متواتر، فيَوْهمون فيه؛ لأن العرب تقول: جاءت الخيل متتابعةً إذا جاء بعضها في إثرِ بعض بلا فصـل، وجـاءت متواترةً إذا تلاحقـت وبينها فصل »[٤٥].

وجـاء فيـه أيضًـا: «فمن أوهامهـم الفاضحة وأغلاطهـم الواضحـة أنهـم يقولون: قَدِمَ سـائرُ الحـاجّ، واسـتوفِيَ سـائر الخـراج، فيسـتعملون (سـائرًا) بمعنـى الجميع ، وهـو في كلام العرب بمعنـى الباقـي[٤٦]». ثم يشرَعُ في الاسـتطراد إلى التأويل السـياقي بـورود هذا اللفـظ في الحديث النبوي الشريف، وهو من المكثرين من الاستشهاد به[٤٧]، فيقول:«ومنه قيل لما يبقى في الإناء: سُؤْر ، والدليل على صحة ذلـك أن النبيَّ- صلى الله عليه وسـلم- قال لغيلان حين أسلم وعنده عَشْر نِسْوة: اختَرْ أربعًا منهنَّ، وفارق سـائرَهنَّ؛ أي: مَنْ بقي بعد الأربع اللاتي تختارهنَّ[٤٨]».

(٤٣) المصدر نفسه، ص: ٤٤.

(٤٤) المعجم العربي ١/ ٩٩.

(٤٥) درة الغواص، ص: ٦.

(٤٦) درة الغواص، ص: ٥.

(٤٧) المعجم العربي، ج١، ص: ٩٩.

(٤٨) درة الغواص، ص: ٤.

ويقفُ موقفَ الرافض لمن قصر دلالة (سـائر) على الأكثر، فمنعوا استعماله في الدلالة على القليل فـ «الصحيح أنه يُسْـتعمل في كل باقٍ قلَّ أو كثُر لإجماع أهل اللغة على أن معنى الحديث إذا شربتم فأسـئِروا؛ أي أبقـوا في الإناء بقيَّة مـا، لا أنَّ المراد بـه أنْ يُشْرب الأقل ويُبْقى الأكثـر، وإنَّما نُدب إلى التـأدُّب بذلـك، لأن الإكثـار من المطعـم والمشْرب منبأةٌ عن النَّهم، وملْأمةٌ عند العرب[٤٩] ».

وينتقـل بالتفريـع على هـذا الحديث ليعرضَ إلى مـا يتعلَّق بالاشـتفاف في الـشُّرْب في حديث أُمّ زَرعٍ تَصِـفُ زَوجَهَـا: «إنْ أكل لـفَّ، وإنْ شرب اشـتفّ...[٥٠]» . ويعود بعد ذلـك إلى تأكيد دلالة (سـائر) على «بقية الشيء » فيقبس من سـيبويه قول الشاعر[٥١]:

ترى الثَّورَ فيها مُدْخِلَ الظلّ رأسه

وسائره بادٍ إلى الشَّمْسِ أجمع

ويدلل على ذلك المعنَى بقول الشَّنفرَى:

إذا احتُمِلَتْ رأسي وفي الرأس أكثري

وغُودِرَ عند الملتقى ثمَّ سائري

وعقَّب على ذلك بقوله: «فعنى كل شـاعرٍ بلفظ سائرٍ ما بقي من جثمانه بعد إبانة رأسه[٥٢]».

ويحملـه الشـاهدان المذكـوران على الاسـتطراد والتفصيـل، إذ ثمة «ما يقتضي الكشـف عنه لئلا يحتضن هذه الكتاب [الدرَّة] ما يلتبس منه »[٥٣].

(٤٩) درّة الغواص، ص: ٤

(٥٠) درّة الغواص، ص:٤

(٥١) البيت مجهول القائل، وهو في: الكتاب ١/ ١٨١، ومعاني القرآن ٢/ ٨٠، وتأويل مشكل القرآن، ص: ١٩٤، وأمالي المرتضى ١/ ٢١٦.

(٥٢) درّة الغواص، ص: ٤

(٥٣) درّة الغواص، ص:٥.

فيعرض لما في البيت الأول من قلب في قوله : «مدخل الظلِّ رأسه » إذِ المراد به مدخل رأسِهِ الظلَّ، فقلب الشاعر الكلام على نحو ما يقال: أدخلتُ الخاتمَ في إصبعي، وهو مجاز قلبٍ حقيقته: إدخال الإصبع في الخاتم. «وقلب الكلام من سنَنِ العرب المأثورة وتصاريف لغاتها المشهورة، ومنه في القرآن: (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) [القصص:٧٦] ؛ لأن تقديره ما إنَّ العصبة تنوء بمفاتِحه؛ أي: تنهض بها على تثاقل[٥٤] ».

وينتقل إلى بَيتي الشَّنفرَى ليتحدَّث عن «الالتفات» فنًّا بلاغيًّا له منزلته في الأسلوب العربي فيقول:« وأما قول الشنفرَى:»ولكنْ أبشري أم عامرٍ« فقد اختُلفَ في تفسيره، فقيل: إنه التفت عن خطاب قومه إلى خطاب الضبع ... »، والالتفات في المخاطبة نوعٌ من أنواع البلاغة وأسلوبٌ من أساليب الفصاحة. وقد نطق القرآن به في قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ) [يوسف:٢٩]، فحوَّل الخطاب عن يوسف- عليه السلام- إلى امرأة العزيز...[٥٥]». وقد استغرق الحديث عن كلمة «سؤر » وما تدلُّ عليه، وما تفرّع عن الشواهد من حديث وشعر ما يزيد على ثلاث صفحات.

وربَّما ساقه النقاش والاستطراد إلى تأصيل بعض العبارات أو إلى التأصيل الاشتقاقي لبعض الألفاظ. فمن الأول تعليقه على قول عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه-: «صدقتَ أطال الله بقاءك »[٥٦]، فقال الحريري: «وكان أوَّل من نطق بهذا الدعاء ». ومن النوع الثاني تأصيله الصرفي للفظة «ترى » : «وعند أهل العربية أن أصل» ترى» : وَتْرى، فقُلبت الواو تاء كما قُلبتْ في «تُخَمَة» و «تُهَمة »، و «تُجاه » ، لكون أصولها من الوَخامة، والوَهْم، والوَجْه[٥٧]».

وقد يستطرد إلى تفسير الشاهد. ففي معالجته دلالة «المتواتر»، وهو الذي جاء بعضه إثر بعض مع فصْل بينهما: «ومنه قولهم: فَعَلَهُ تاراتٍ؛ أي: حالًا بعد حال، وشيئًا بعد شيء. وجاء في الأثر أن الصَّحابة- رضي الله عنهم- لّما اختلفوا في الموءودة قال لهم عليٌّ- رضي الله عنه- إنها لا تكون موؤدة حتى تأتي عليها التارات السَّبْعُ...»، فقال الحريريُّ مبينًا المراد من قول علي- رضي الله عنه-: » وأراد عليٌّ- رضي الله عنه- بالتّارات السَّبْع طبقات الخِلَق السبع المبيّنة في قوله- عزّ وجلّ-: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ).[المؤمنون:١٢- ١٤] يعني سبحانه ولادته حيًّا، فأشار عليٌّ- رضي الله عنه- إلى أنه إذا استهلَّ بعد الولادة ثم دفن فقد وئدَ[٥٨]».

وربما يطلق حكمًا نقديًّا بتفضيلِ رواية للشاهد على أخرى؛ لأنها الأكثر إصابة للمعنى وتأدية له. ومن ذلك إثباته رواية قول الشاعر:

مطاعينُ في الهيجا مطاعيمُ في القَوا

إذا اصفَرَّ آفاق السَّمَاءِ من القَرْسِ

وتعليقه على البيت مفسِّرًا كلمة (القَوَا)، ومفضلًا رواية على أُخرَى: «يعني بالقوا المكان

(٥٤) درّة الغواص، ص: ٥.

(٥٥) درّة الغواص، ص: ٥

(٥٦) درّة الغواص، ص: ٧

(٥٧) درّة الغواص، ص:٧

(٥٨) درّة الغواص، ص: ٧. وانظر أيضاً ص: ١٠٥.

القَفْـر. وقـد رَوَى بعضهـم: مطاعيـمُ في القُرى. والرواية الأولى أبلغ في المَدح وأشبع للمعنى[٥٩]».

ولا يقـدِّم الحريـري تصحيحاتـه على طريقة (قـل ولا تقل)، ولكنَّهُ يعضد قَولَـهُ بالأدلَّةِ النقليَّة المسموعة، مُعَوِّلًا على المطّرد، مُتَنَكِّبًا الشاذ والنادر والقليل. ومن هنا عُدَّ الحريريّ ممثل أحد اتجاهين في اختيار المقياس الصوابي، وهو الاتجاه المتشدِّد الـذي يقف عند الفَصيحِ والأفصح فحسـب. وهو في ذلـك امتداد لأكثر مُصَنِّفِي كُتُب اللَّحنِ مِن مثل الأصمعـيّ وابن السِّـكِّيت، وابن قُتيبـة ، وثعلب، والهرويّ، والزبيـديّ؛ فلم يَقِسْ- كما ذكرنا- على الشَّـاذِّ والقَليلِ، على الرغم من أنَّهُ رُبَّمَا يُشـير إلى مسـتويين لغويين همـا: الفصيـح والأفصح، ولم يتسرَّع في اطِّراح ما اسـتُعمل والسَّـماع يسـنده، وإن لـم يطـرد، ولا يرميه بالخطـأ[٦٠]. ولهذا عَدَّ «يوهان فـك» الحريـريَّ ممثلًا مذهـب اللغويين المتشدّدين[٦١].

وكان يقابـل الاتجـاه السـابق اتجاه يجنح إلى التيسير والتوسع في قبول ما سُمِع على العرب غير آبهٍ بدرجة الاحتجاج به[٦٢].

وقـد أَرجَعَ الدكتـور أحمد قدور أَمرَ الاختلاف فيما يُحتج به مـن كلام العربِ عند مصنِّفي كتب اللحن إلى سببين:

أولهمـا: الالتزام بالحرْفيـة المعياريَّة القائمة على الوقـوف عند معاني الألفـاظ اللغوية التي جاءت حتى نهاية عصر الاحتجاج والتمسّك بها.

(٥٩) درة الغواص، ص: ١٨١.

(٦٠) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ٦٣.

(٦١) العربية، ص: ٢٢٠.

(٦٢) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص ٦٢ و٦٣ .

ثانيهما: النظر إلى مستوى كلاميٍّ واحد والاعتقاد بعدم وجود فروق بين المسـتويات اللغوية؛ ولذلك جمعـوا بين الآيـات القرآنية أو الأبيات الشـعرية والحديـث وكلام العرب في قـرَنٍ واحد. إضافة إلى احتجاجهـم بأمثلـة لا يُعْرف زمنها ولا المسـتوى الذي تعود إليه[٦٣].

إنَّ دارس«الـدرَّة » تلقاه شـواهد كثيرة يسـند بها الحريريُّ ما ذهبَ إليـهِ مِن تَصحيحات[٦٤] في مسـتوى الإفراد والبنية والتركيب والدلالة. ويقفُ عـلى آيات قرآنيـة[٦٥]، وأحاديث نبويـة[٦٦]، وآثارٍ مروية، وأشعار[٦٧] كثيرة تعود إلى زَمَنِ الاحتجاج بـدءًا بالعصرِ الجاهليِّ إلى نهايـةِ عَصرِ الاحتجاج، من مثل امرئ القيس، وطرفة، وعنترة، والخنساء، وجرير، والأخطل، وزهير بن جَنَاب، وأبي الشِّمال السّعدي، وأبي دهبل الجُمَحيّ، ومطيع بن إياس، ومسكين الدَّارميّ، وأبي نُواس.

وقـد لا يلتـزم الحريريُّ دائمًا بِنِسْـبَةِ شَـاهده إلى صاحبِـهِ ، مقتـصرًا عـلى قولـه: «ومنـه قول الشـاعر[٦٨]»، أو قولـه: «... وقـال[٦٩]»، و«إلى هذا أشار الشاعر في قوله[٧٠]»، و«كقول الشاعر،...[٧١]» والغالب عليه التقيُّد بذكر صاحب الشـاهد[٧٢]، أو

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٦٤) بلغ عدد الألفاظ المصححة ٢٥٢ لفظًا، آخرها : "مما يجب أن يكتب موصولًا".

(٦٥) بلغ عدد الآيات١٠٢ آية.

(٦٦) عدد الأحاديث ٤٨ حديثًا.

(٦٧) بلغ عددها ١٢٤ شاهدًا ما بينَ بيت وشطر من بيت.

(٦٨) درة الغواص، ص: ١٢٤، ١٣٩.

(٦٩) المصدر نفسه، ص: ١٤٠.

(٧٠) المصدر نفسه، ص: ١٤١.

(٧١) المصدر نفسه، ص: ١٤٢ .

(٧٢) المصدر نفسه، ص: ٨١، ٨٢، ٨٨، ١١٩ ، ١٢٠ ، ...

عزو الإنشـاد إلى عالـمٍ من علماء اللغـة[٧٣]، كابن السكيت، واللحياني وأضرابهما.

٤-مستويات التنقية اللغوية التي عالجها :

وتتوزّع مستويات «التنقية اللغوية» عند الحريري إلى ما يأتي:

١- المستوى الصوتي.

٢- المستوى الصَّرفي.

٣- المستوى الحركة الإعرابي.

٤- المستوى التركيبي.

٥- المستوى الدلالي.

وهـو غـير ملتزم في مناقشـتها وتبيان الخطأ فيها سَـمْتًا معيّنًا، ولا منهجًـا خاصًّا. فينتقل من الدلالـة إلى البنية فالحركـة فالتركيب،... من دون رابط يلتـزم به كما قدمنا، فحسـبه أن يفرد لكل ذلك مسـاحات يناقشـها فيها، ويستدل لما يذهب إليه بما يعضد قوله من شواهد.

فمـن النـوع الأوَّل ما يلفـظ باسـتبدال الأحرف المتقاربة أو المتشـابهة، نحو قولهـم: كاغَدُ وكاغذُ وكاغظ للـورق، وقولهـم: جدَّ الحبـلُ وجذه؛ أي قطعه، ودففْتُ عـلى الجريح وذففت؛ أي أجهزتُ، وخَرْذلتُ اللحم وخَرْدلتُه، أي قطَّعته وفرَّقته[٧٤].

ومـن ذلـك أيضًـا أنه قال: تشعشـع الشـهرُ، بالشـين، أي: استدقَّ، وتسَعْسـعَ الشهر، بالسين. والمـراد بالشـهر: الهـلالُ، ومعناه عـلى الإعجام: اسـتدقَّ من شعشـعةِ الشراب بالماء شعشـعة إذا مزجتـه فَرقَّقته. وهذا موضع مـن مواضع ردود الخفاجي على الحريـري، فقال: وأما قول الناس: «(شَعْشعة الأنوار) بمعنى إشراقها وتلألئها فليس من كلام العرب».

(٧٣) المصدر نفسه، ص: ٨٧، ٨٨ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٧٤، ...

(٧٤) المصدر نفسه، ص: ٣٩. وانظر أيضًا ، ص : ٣٥.

وقد وقفَ الدكتور أحمد قدور موقفَ المستغرب المُنكِـر- وحُقَّ له ذلـك- موقف الخفاجي من قول النـاس المذكـور آنفًا؛ لأنَّ المعروفَ عـن الخفاجيِّ فيمـا يرد به عـلى الحريـريِّ أَنْ يَنأَى عن تَشَـدُّدِ الحريـريِّ، ويفتحُ بـابَ التجوُّز، ولـم يكن يتقيَّد في أكثـر ردوده وانتقاداته بالوقـوف عند الاعتداد بالمسموع عن العَرَبِ نَصًّا. وقول الناس «شعشعة الأنوار يمكن رده إلى معنى التفرق والانتشار...». ويبدو أنَّ شعاعَ الشَّـمسِ هو أصلٌ لمعظم ما جاء مـن اشـتقاقات هذه المـادة. ففي الشـعاع تلألؤ وتفرُّق[٧٥]».

وممـا جـاء لديه من المسـتوَى الثالث (الحركة الإعرابيـة) قولـه: «ويقولـون ابـدأ بـه أوَّلًا [٧٦]» بصرف «أول» وتنوينه، والصَّوابُ أَنْ يقالَ: ابدأ به أوَّلُ بالضم كما قال معن بن أوس المُزنيُّ:

لعمرُك ما أدري وإني لأوجلُ

على أَيِّنا تعدو المنيةُ أَوَّلُ

وأنكـر الحريريُّ على العامّة اسـتعمالها كلمة (أوّلًا) بالتنوين والنصب عـلى الظرفيّة، وهو بناء تسـلّل إلى فهرسـت ابـن النديم في القـرن الرابع للهجرة، فدرج على استعماله كثيرًا في كتابه، وزاد الطين بلّة فاشتقّ بناء مؤنّثًا منه هو (أوَّلة)[٧٧].

وقـد علـل بنـاء «أول بالضـم بأنـه عـلى نية الإضافة، وتقدير الـكلام ابدأ به أوَّل الناس ، فلما اقتُطِعَ عن الإضافة بُنيَ كأسماء الغايات التي هي قبْـلُ وبعـد ونظائرهما[٧٨]». وكانت هذه المسـألة

(٧٥) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ٤٤٠ و٤٤١.

(٧٦) درة الغواص، ص: ١٢٩.

(٧٧) العربية، ص:٢٠٦.

(٧٨) درة الغواص، ص: ١٢٦. وتُنظر المسألة في: الكتاب ١/ ١٦، و ٣/ ٢٨٨، وسر صناعة الإعراب، ص: ٦٠٠، ٨٠٠، ٨٢٠.

مطيَّـة الحريـري لينتقـل مسـتطردًا إلى توضيح مصطلح«الغايات» الوارد في كلامه، وتعليل بنائها، «وإنمـا بنيت عـلى الضم لأنَّها عـلى حالة الإضافة تعرب تـارةً بالنصب وأخرى بالجر، فخُصَّت عند البنـاء بالضم الذي خالف حركتـي إعرابها ليُعْلَمَ أنهـا مبنيـة لا معربـةٌ عـلى أنَّ (أوَّلَ) إذا أُعرِبَ لا يُـصْرف لأنه عـلى وزن أفعل، وهو صفـة.... ولم يسمع صرفُه إلاَّ في قولهم:

مـا تركـتُ لـه أوَّلًا ولا آخـرًا فجعلـوه في هـذا الكلام اسـم جنس وأخرجوه مـن حكم الوصفية، وأجـرَوْا هذا الكلام بمعنى مـا تركت له قديمًا ولا حديثًا[٧٩]».

ومـن نمـاذج معالجتـه اللحن المبنـوي قوله: «ويقولـون لمن يصغـر عن فعـل شيء هو يصبو عنـه، والصوابُ أن يقال: يصْبى لأن العرب تقول: صَبَـا عن اللهو يصبو صَبـوًا والفَعْلة منه صَبْوة، وصَبـيَ مـن فعل الصبـيِّ يصبى صِبًـى ، بكسر الصـاد والقصر، وصَبَـاءً بفتحها والمـدِّ، والفَعْلَة منـه صبيَّةٌ » فالبنـاء الأول (يصبـو) واويَّ اللام والثاني يائيٌّ. ونظيره قولهم: هو يلهو عن شغلي، وصوابه: يلْهى، إذ الأول من اللهو بالشيء، والثاني من الانشغال عن الشيء[٨٠].

ومـن ذلـك أيضًا قولهـم: «... فَعَلتُـه مَجْراك فيحيلـون في بنيته ويحرِّفونه عن صيغته[٨١] »؛ إذ نلاحظ تصريحه الواضح في الخطأ في (البنية).

وفَرق بـين بِنَاءَي (فَعَل) و(أَفْعَلَ)، إذ وجدهم يقولون: طرده السـلطان، ووجه الكلام أن يقال: أطرده؛ لأن الأول معناه أبعده بيده أو بآلة في كفِّه على غرار قولنا: طرَدت الذُّباب عن الشراب، ومعنى (أَطْرَده السلطان): أمر بإخراجه عن البلد. ودليله المسـموع ما سُـمِعَ عن العرب من قولهم: أَطْرِده كما يقال: أَطْرد فلانٌ إبلَهُ أي أمر بطردها[٨٢].

ومن الظواهر النحويةِ الكثيرةِ التي استعملتها الخاصَّةُ اسـتعمالًا خارجًا عن سَنَن العربية، أنهم يقولون: «زيدٌ أفضلُ إخوتـه» وخطؤهم يكمنُ في إضافتهم «أَفْعَل » التفضيل إلى ما هو ليس داخلًا فيـه، أو ما تنزَّل منزلة الجزء. وفي قولهم السـابق يكـون «زيدٌ » خارجًـا من جملةِ إخوتـهِ، ولذلك امتَنَـعَ أَنْ يضـافَ إلى مـا ليس هو مـن جملتهم. فليـس مـن المقبـول نحويًا القـولُ: زيـدٌ أفضل النساء؛ لأنه أصلًا متميز عنهن وخارج عن أن يُعَدَّ في جملتهن. والصواب أن يقال: زيدٌ أفضلُ الإخوة، أو أفضـلُ بني أبيـه؛ لأنه حينئذٍ يكـون داخلًا في جملة مَنْ أضيف إليهم، فلـو قيل: مَنِ الإخوةُ؟ أو من بنو أبيه؟ لعددته فيهم وأدخلته معهم[٨٣].

ومن ذلك قولهم في الاسـتفهام: كم عبيدًا لك؟ فيقيسون العبارة على استعمالهم (كم) الخبرية في قولهم: كمْ عبيدٍ عندك. والصواب أن يوحَّد التمييز فيقـال: كـم عبدًا لـك ؟ فاسـم الاسـتفهام (كم) موضوع للعـدد المبهم؛ ولذلك أعطيت حكم نَوْعي العدد فجُرَّ الاسـم الواقع بعدها في الإخبار تشبيهًا له بالعدد المجرور في الإضافة ونُصِبَ في الاستفهام على التشـبيه بالعدد المنصوب على التمييز، ولهذا جاز وقـوع الواحـد والخـبر بعد (كـم) الخبرية ووجـب إفراد التمييز بعد (كم) الاسـتفهامية على

(٧٩) درة الغواص، ص: ١٢٧. وانظر: ١٦٧.
(٨٠) المصدر نفسه، ص: ١٧٤.
(٨١) المصدر نفسه، ص: ١٧٤.
(٨٢) المصدر نفسه، ص: ١٧٩. وتُنظر أمثلة على ذلك في ص: ١٨٠، ١٣٢، ١٢٣، ٣٨، ٤٣، ٤٧، ٥٢، ٩٥، ٩٦، ٩٧.
(٨٣) درة الغواص، ص: ٩. وانظر المسألة في: ارتشاف الضرب ص: ٢٣٢٣.

حده بعد (أحد عشر) إلى تسعةٍ وتسعين، وامتنع وقوع مميّزها جمعًا؛ إذ العدد منصوب على التمييز، والمميّز بعد المقادير لا يكون إلَّا مفردًا[٨٤].

ولعلَّ المستوى الأخير، وهو المستوى الدلالي، أكثر هذه المستويات ظهورًا في جهد الحريري في مبدأ التنقية، وأكثرها غنًى وتشعُّبًا. فهذا المستوى هو حصيلة المستويات السابقة كلها، والغاية التي يرنو إليها المرسِلُ من رسالته اللغوية، وإليه مآلها. وفيه تظهر سبل التوسُّع الدلالي أو تضييقه. وتتلفع بعباءته قضايا الترادف[٨٥]، والاشتراك اللفظي[٨٦]، والتَّضاد[٨٧]، وتخصيص الدلالة وتعميمها، وسُبُلِ التَّطوُّر اللغوي، أو موقفه من المعرَّب.

ومن أمثلة التباين في الدلالة ما أورده الحريري من قول العرب في المثل: جرى الوادي فطمَّ على القليب، والمسموع فيه: فطمَّ على القِرِيّ ، إذ دلالة «القليب» مختلفة عن دلالة القَرِيّ، والمراد به مجرى الماء إلى الروضة. ومنه أيضًا: يا حاملُ اذكرْ حَلًّا، وهو لفظ مصحَّف عن قولهم: يا حابلُ، والحابلُ هو مَنْ يشدُّ الحبلَ، والحامل: مَنْ يحمل شيئًا وليس له علاقة بالحبل[٨٨].

ومنه أيضًا رواية بيت امرئ القيس:

نمسُّ بأعراف الجياد أكفّنا

إذا نحن قمنا عن شواء مهضَّبِ

وصوابه : «نمُشُّ » والمشُّ: مسحُ اليد بالشيء الخشن[٨٩].

فالحريريُّ- مَثَلًا- يخطِّئ العامة في قولهم: «وحقِّ الملح[٩٠]»، ومرادهم بـ «الملح » ما يؤتدم به وما يوضع في الطعام. ويقصر الحريريُّ دلالته على الرّضاع فحسب؛ فالعرب- في سياق أيمانها- تقسم به، ودلَّل على ذلك ما جاء في قول وَفدِ هوازن للنبيِّ- صلَّى الله عليه وآله وسلم-: لو كنا مَلَحْنا للحارث والنعمان لحفظ ذلك فينا، وهم يريدون: لو أننا أرضعنا له. ومثله قول أبي الطمحان القَينيّ يُخاطب قَومًا نَزَلَ في ضيافتهم، ولَّما أجنَّهم الليل استاقوا نَعَمَهُ:

وإني لأرجو مَلْحها في بطونكم

وما بسطت من جلدِ أشعثَ أغبرا

ومراده: إني لأرجو أن تؤاخَذُوا بغدركم في مقابلة ما شربتم من لبنها الذي أسمنها وحسَّن بدنكم [٩١].

ثم استطرد الحريري إلى تفسير كلمة «الملح » في قولهم: ملحه على ركبتَيْه، والمراد به أنَّ المقول له هذا القول ممَّن يضيّع حق الرضاع كما يضيِّع الملح من يضعَه على ركبتيه. أو أن المعنى أنّه

(٨٤) المصدر نفسه، ص: ٥٠. وانظر: ص ١٠٨، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٧، ١٧٩، ١٩٥. ويُنظر: ارتشاف الضرب، ص: ١٦٢٧.

(٨٥) يراد به دلالة اللفظ الواحد على مقصد واحد، وهو غالب اللغة مثل: الإنسان، والفرس، والسواد، والبياض. دلالة ألفاظ عدَّة على معنى واحد.

(٨٦) هو دلالة لفظ واحد على معنيين غير متضادين، مثل عين الماء، والعين الباصرة.

(٨٧) أن يدلَّ لفظان على معنيين متضادين، وهو نوع من المشترك. المزهر ١/ ٣٨٧.

يُنظر في دلالة المصطلحات السابقة: المزهر ١: ٣٦٨ و ٣٦٩ و ٣٨٨، و٣٨٩، ودراسات في فقه اللغة: د.صبحي الصالح، ص: ٢٩٢ وما بعدها، والمدخل إلى فقه اللغة، د.أحمد محمد قدور، ص: ٢٦٤ وما بعدها، وفي فقه اللغة العربية: د. مسعود بوبو ، ص: ٢٥٩ – ٢٩٠.

(٨٨) درة الغواص، ص:١٢٨.

(٨٩) المصدر السابق نفسه، ص:١٣٥.

(٩٠) درة الغواص، ص: ٨٠ و٨١.

(٩١) درة الغواص، ص: ٨٠.

السّـيئ الخلق الذي تُطيشه أقل كلمةٍ كما أنَّ الملح الموضوعَ فوقَ الركبة يتبدَّد بأدنى حركة[٩٢].

ولكـنّ هذا المعنى وحده لم يسـلِّم به الخفاجي شارح «درة الغواص»، فاحتج بأن مقصد العامة من «الملح» حين يقسـمون بالملح والخبز معًا هو العُشْرة والمودة، فقال: «الملح مشترك بين المعروف والرَّضاع، والـوارد في كلام العرب بالمعنى الثاني. وأما قصْد العامة الأوَّل فكناية عن حقوق العُشْرة والمودة وقسمهم بذلك لتعظيمه فلا ضَيْر فيه[٩٣]».

وثمة ما يعضد قول العامّة ويؤيده «لأن العرب تحلف بالملح والماء تعظيمًا لهما، كذلك تعظم أمر الملح والنار والرماد[٩٤]».

ومـن قضايا العلاقات الدلالية التي عرض لها الحريري ما يسـمَّى علاقة التضـاد. ومن الأوهام التي يناقشها الحريري أن أكثر اللغويين يذهبون إلى اسـتعمال لفظ «البِشارة [٩٥]»في حقل الإخبار بالخير فحسـب، فأنكر عليهم ذلـك ذاهبًا إلى أنها قد تستعمل في الدلالة على الشرِّ، وأيَّد ما ذهب إليه بأمرين:

أولهمـا: قولـه تعـالى: (فَبَشِّرْهُـمْ بِعَـذَابٍ أَلِيـمٍ) [الانشقاق: ٢٤].

وثانيهمـا: أن أصـل دلالـة لفظ «البشـارة» على مـا يحصـل في بَشَرة المبـشَّر من تغيّر لـدنْ تلقيه البشارة، وهذا التغيير يعم الفرح والسوء معًا.

وقـد ردَّ الخفاجي على الحريري إجازته إطلاق لفظ «البشـارة» عـلى الشرِّ وهم يسـتندون على الآيـة الكريمة (فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ)، وغاب عن أذهانهم أن الاسـتعارة هنا مـن قبيل التهكم بهم والتبكيت لهم. ومع ذلك ليس ما قال به الحريري «بدعًا؛ لأنه أخذ دلالة الأصل في حسبانه، كما نظر في إطلاق مجال الاسـتعمال وتقييـده... ومع ذلك يلاحظ الدارس أنَّ الحريري أجاز ذلك حين أجازه بتحفُّظ مستخدمًا أسلوب التقليل في عبارته[٩٦]».

وقـد سـبق لابـن سـيده (ت ٤٥٨هـ) أن أجاز اسـتعمال لفظ (البشارة) في كل من الخير والشر، واستدلَّ على ذلك بقولهم: تحيتك الضَّرْب وعتابك السـيف، فـلا وجه للـوم الحريـري في ذلـك[٩٧]. وخلاصـة القول أنها تطلق في الخـير والشرّ، فإذا أطلقـت توجَّهـت دلالتهـا إلى الخـير، وإذا قيدت بمعمول كانت في كلا الأمرين[٩٨].

وعـرض لقضايـا كثـيرة يحتجنهـا التطـور اللغوي بسـبله المتعـددة، من تضييـق الدلالة أو توسـيعها، والنقـل عن طريق المجـاز. ومن أمثلة تضييـق الدلالـة إيـراده ألفاظًا تسـتعمل في باب الشر فحسب، من ذلك: التهافت للسقوط، وأَشفَى بمعنَـى أشرف عـلى الهلكـة، والأرق (السـهر في المكروه)، وصاروا أحاديث لأخبار السَّوْء، وسَوَاس وسواسـية للمتساوين في الشر، والهنات كناية عن المكروه، وندَّد به إذا سمَّع[٩٩].

ومـن ذلك أيضًـا التخصيص بالنظر إلى الدلالة

(٩٢) المصدر نفسه، ص: ٨١ . ويُنظر: ص: ٨٧.
(٩٣) شرح درَّة الغواص، ص: ١٢٤. ويُنظر ص: ٣٣٥ .
(٩٤) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ١١٠ . وللملح معانٍ كثيرة يمكن العودة إليها في: لسان العرب، والقاموس المحيط، وتاج العروس (م ل ح). ويُنظر أيضًا: درة الغواص: ٥، ١٢٣، و ١٦٠.
(٩٥) درة الغواص، ص: ٨٦، وانظر ص: ٩٢، و١١٩.
(٩٦) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي، حتى القرن العاشر، ص: ١١٩.
(٩٧) المصدر نفسه، ص: ١١٩.
(٩٨) شرح درة الغواص، ص: ١٨٤، ويُنظر: العربية، ص: ٢٢٨.
(٩٩) درة الغواص، ص: ٧٨ و ٧٩.

الزمنيــة، ومنه أنَّ العــرب قد خالفــتْ بين ألفاظ متفقــة المعاني لاختلاف الأزمنة، وقصرت أســماء أشــياء عــلى وقــت دون آخر، فقــد ســمَّت الغداة صبوحًــا، وشرب العشــية غَبوقًــا، وشرْب نصف النهــار قَيْــلًا، وشرب أوَّل الليــل فحمــةً، وشُرب السَّحر جاشرية.

ومنه أيضًا إطلاقهم اسم السَّراب على ما يكون في نصف النهار، والفــيء لا يكون إلا بعد الزوال، والمقيل بمعنى الاســتراحة وقت الهاجرة، والسمر حديث الليــل خاصة... والادِّلاج: ســير آخر الليل، والتأويب: ســير النهار وحده، والسُّرى: سير الليل خاصة،...[١٠٠].

ومــن التخصيــص مــا كان بالنــوع، إذ تطلق العامــة لفــظ «اللدْغة » على مــا كان من العقرب، فقــال الحريــري: «والاختيــار أن يقــال لــكل ما يضرب بمؤخــرةٍ كالزّنبــور والعقرب: لَسْــعٌ ولما يقبض بأســنانه: نهشٌ، ولما يضربُ بفيه كالحيّة: لدْغٌ[١٠١]».

وأنكر ابنُ الجوزي مذهب الحريري السابق في التفريق بين دلالات اللدْغ والنهش واللســع. وتبعه ابن الحنبلي في ذلك؛ إذ رأى أن العامة لا تفرق بين هذه الدلالات. وخالف الخفاجي كل ما تقدم ذاهبًا إلى تــرادف تلك الألفــاظ، ورفــض أن تخصَّ كل هامّــة من الهوام بنوعٍ من الأنــواع، فقال في ذلك: «...إلا أنَّهم قالوا: لدغتْه العقربُ ولسعته ولسبته، كلّهن سواء[١٠٢]».

وكان ظهيره على ذلك ما جاء في المثل المسموع: تلــدغ وتُــصيء، وصوت الحيــة لا يســمَّى صياءً، والصيــاء هو صــوت العقرب. وأضــاف إلى دليله ذاك دليلًا ســياقيًا هو اســتعمالُ الحريري نفسه هــذا اللفظ بالمعنى الذي أشــار إليه، في مقامة من مقاماته[١٠٣].

وفيمــا يخــصُّ مــا ذكــره الحريري مــن قبيل التخصيــص بالزمــن، أنكر الخفاجــي ذلك أيضًا على الحريري، وعدَّه اســتطرادًا مــن المؤلف عائدٌ إلى اختــلاف التعبــير باختلاف الزمــن. فما ذكره الحريــري قليــل قياسًــا إلى مــا ذكــره الثعالبــي في فقــه اللغــة، وأبــو هــلال العســكري في كتابه «الفروق[١٠٤]».

فالخفاجــي لــم يســلِّم للحريــري بمــا ذكره، وعضــد مــا ذهب إليه مثــلًا من تخصيــص دلالة (الظل والفيء) بدليل ســياقي هو استعمال امرئ القيس وغيره (الظل) بمعنى (العشيّ).

أمــا التطوّر عن طريق النقل والمجاز فمنه قول الحريــري: «ويقولون: فلانٌ في رَفَهة، والمســموع عنــد العــرب: في رفاهةٍ ورفاهيَّة... واشــتقاق من لفظ الرّفاهية من الرَّفــهِ، وهو أن تورد الإبل كلما شاءتْ كل يوم، فكأنهم قصدوا بها التوسُّع [١٠٥]».

فالأصــل في لفظــة «الرفه» محســوس يدلُّ على شرب الإبــل وقــت تشــاء. وأنكــر الخفاجي قول الحريــري بكون الرُّفهــة بمعنــى الرفاهية وعده خطــأ واضحًا. ثم قال:«نعم الرَّفهــة - محركةً -: الرحمة وســعة العيش رحمةً من الله. فإذا تُجوِّز بهــا عن ذلــك لم يكن مــن الخطــأ في شيء لمن له بصيرة نقّادة [١٠٦]».

والصَّــواب مــا ذهب إليه الدكتــور أحمد قدور

(١٠٠) درة الغواص، ص: ٧ و ٨.
(١٠١) درة الغواص، ص: ١٠٠.
(١٠٢) شرح الدرَّة، ص: ٢٠٩.
(١٠٣) شرح الدرَّة، ص : ٢٠٩.
(١٠٤) مصنَّفات اللحن والتثقيف اللغوي، ص: ١٥١.
(١٠٥) درة الغواص، ص: ١٦٠.
(١٠٦) شرح درة الغواص، ص: ٢٠٧.

إذ رأى أن كلًا مـن الرُّفهية، والرفاهية، والرفاهيَّة تلتقـي في حقـل دلالي واحـد هـو طيـب العيش وخصبـه ورغـده ولينـه وأن «الرّفهة» تـدلُّ على الرحمـة والرَّأفة،«وبهـذا يكون اسـتعمال الناس مـن النَّقْل؛ لأنهم تجوَّزوا- كما قال الخفاجي-بها عـن مَوْضعها، وهو الرحمة والرأفة إلى الدلالة على الخصب والدَّعة، لما بين الدلالتين من علاقة[١٠٧]».

ومن ذلك أيضًا قولهم: أزفَ وقت الصَّلاة والمراد تَضايُقُه ومُشـارفةُ تصرُّمه. وهـم بذلك يحرِّفونه ويعكسـون المعنى الذي وضع لـه: إذ أصل دلالة اللفظ (أَزف) إنما هـي الدنُوُّ والاقتراب لا الوقوع والحضور، ولذلك سُمِّيت السـاعةُ (الآزفة)، وهي ليسـت واقعة أو حاصلـة. وقد اسـتعمل النابغة هـذا اللفـظ بمعناه الأصـلي الموضوع لـه (الدنو والاقتراب) ، فجاء في شعره[١٠٨]:

أَزِفَ الترحُّل غيرَ أنَّ ركابنا

لمّا تزُل برحالنا، وكأنْ قدِ

ولكـنّ ابن برِّي مال إلى أن ذلك الاسـتعمال هو مـن باب وضع الشيء في غـير ما وضع له، وحاول التقريب بين دلالتي الدنو والتصرُّم، فقال:

«وقولهـم : أزفَ وقت الصَّلاة إشـارة إلى تضايُقه ومُشارفة تصرُّمه صحيح، ألا ترى أن زمان الساعة الأولى إذا قَرُب من السـاعة الثانية فقد أشرف على التصرُّم؟[١٠٩]». وفي ذلك مَيْلٌ إلى توسيع الدلالة عن طريق النقل والمجاز[١١٠].

(١٠٧) مصنَّفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ٤٣.

(١٠٨) ديوان النابغة الذبياني,صنعة ابن السكيت، ص:٣. وروايته:"أفِد الترحُّل...".

(١٠٩) شرح درة الغواص، ص: ١٨.

(١١٠) درة الغواص، ص: ٢٣ وشرحها للخفاجي ص : ٢٥١.

وفي مسـألة المعـرَّب لم يقـف الحريري موقف الحاجر لدخولـه، لكنه رأى وجوب «ضغط اللفظ الأعجمـي في قالبٍ عربي، وطبعـه على ذلك النحو بالطابع العربـي» فينال بذلك الجنسـية العربية ويغدو واحدًا من أفراد معجمها. ولذلك رأى تغيير بناء اللفظ المعرَّب ليناسـب أبنية العربية، فيقال: شِـطْرنج- بكسر السـين- لا بفتحها، ودُسـتور- بضم الدال- لا دَسـتور بفتحها، وسِرْداب- بكسر أوّله- لا سَرْداب، بفتح أوّله[١١١].

٥-الحريري والخالفون:

عرفنـا من قبل أن حركة التنقية اللغوية بدأت مناشـطها منذ أن أخذت البيئـة اللغوية تفِدُ إليها شـوائب نتيجة انديا‌ح حركة نشر الإسلام، وتقبل كثير من الشـعوب الدين الجديد الـذي لا تتحقق العبادة الرئيسـية فيه «الصلاة » إلا بلسان عربي مبـين. لكن حركة التأليـف في علاج ظاهرة اللحن بدأت مع الكسائي (ت ١٨٩هـ) واضع أول كتاب في مبدأ «التنقية اللغوية »، وعلاج طامَّة اللحن.

ولكـن أمر اللحن- كمـا عرفنا من قبل- تعدَّى حـدود « العوام » والتبسـتْ به ألسـنة الخواص، فتواتر التأليف في علاج المشكلة اللغوية، حتى بلغ عدد كتب لحن العامة والخاصة، وكتب التصحيف والتحريف، وكتب التثقيف اللغوي- وفق إحصاء الدكتـور رمضان عبد التواب، رحمه الله- سـبعة وخمسين كتابًا، فبدأ بكتاب الكسائي (ت ١٨٩هـ) (ما تلحن به العامة)، وانتهى بكتاب (حول الغلط الفصيح على ألسنة الكتاب)، لأحمد الخضر منسي الذي صدرَ سنة ١٣٨٣هـ. هذا إذا ضربنا صفحًا عن كتب كثيرة صـدرت في التصحيح اللغوي بعد هذا التاريخ.

(١١١) العربية: يوهان فك، ص : ٢١٥.

وفي استطاعتنا- بشيء من التجوُّز التاريخي- أنْ نعـدَّ كتاب (درَّة الغـوّاص في أوهام الخواصّ) للحريـري ، الذي سـبق لنا أن درسـناه مفصِّلين القول في موضوعاته، ومنهجه العام، وسبل علاجه ظاهـرة اللحن اللغوي، درّةَ هـذا التصنيف وخيرَ ممثل لمعالجة مسألة التثقيف اللغوي.

لقـد أثار هذا الكتابُ حركةً تصنيفيةً نشـطةً، وتَـرَكَ صـدًى قويًّا في آثـار الخالفـين، فما كتبه الحريـري عـن اللحـن اللغـوي لقـي«في دوائـر الطبقات الخَاصَّـة اهتمامًا كبـيرًا عند صدورها، وأثـارت حلقات مِنَ النزاع المسـتمر الذي تجاذبه عددٌ من مشاهير اللغويين في القرن السادس[١١٢]».

وإذا تركنـا الكتب التي عالجت قضية التنقية اللغويـة بعـد الحريري واقتصرنا عـلى عرض ما أُلِّـف شرحًا لدرَّة الحريـري، أو نقدًا لها، أو تتمةً، أو ترتيبًـا، لوقفنـا عـلى الكتب الآتيـة التي يمكن تصنيفها إلى :

أ. كتب تحشية.

ب. كتب نقد.

ج. كتب تكملة .

د. كتاب ترتيب معجمي.

كتب التحشـية: نجد في هذا الباب كتابين حشَّاهما صاحباهما على كتاب (الدرة)، وهما:

١- الـردّ عـلى الحريـري في درة الغـواص [١١٣].

ومؤلفـه محمـد بن عبـد الله بن محمـد بن ظفر المكِّي الصقلي، أبو جعفر[١١٤]. وُلِدَ في مكة المكرَّمة وتنقَّـل في بلاد إفريقية، ثم انتقل إلى صقلية ثم إلى مصر. قَدِمَ حلب ثُمَّ قَصَدَ حماةَ، وفيها لقي قبولًا، وأُجري عليه راتب، فصنَّف فيها تصانيفه. اتَّصَفَ بالـورع والزهـد والصـلاح . وكان عالمًـا في اللغة والنحو. مات في حماة سـنة ٥٦٥ هـ، وترك جملة من الآثار، منها ينبوع التفسـير، والتفسير الكبير، والاشـتراك اللغوي[١١٥]، ...وله على كُتُبِ الحريريِّ تصنيفانِ آخـرَانِ، وهما: المطوَّل في شرح مقامات الحريـري[١١٦]، والتنقيب على مـا في المقامات من الغريب[١١٧].

٢- حاشـية عـلى درة الغواص لأبي عبـد الله بن أبي الوحـش بن عبد الجبار بن بـرِّي، أبو محمد أو ابن بري. ولد سـنة ٤٩٩ هـ، ونَشَأَ مُحبًّا للعلم ومجالسـة العلمـاء، وحصَّل علومًا كثـيرة، وأخذ العلم عن كثير مـن علماء اللغة والنحو، منهم ابن القطـاع (ت ٥١٥هـ)، وأبو بكر الشـنترينيّ إمام العربيـة في الأندلـس (ت ٥٤٩هـ)، وأبـو طالب القرطبي المعافري (ت ٥٦٦هـ). وأخذ عنه علماء كثر منهم: عيسى الجزولي (ت ٦٠٧هـ) ، وسليمان بـن بنين الدقيقي (ت ٦١٤هـ)، ويحيى بن عبد اللـه بـن يحيى النحـوي المـصري (ت ٦٣٣هـ)، وغيرهم.

---

(١١٢) العربية، يوهان فك ص: ٢٢٢.

(١١٣) الاسم الكامل للكتاب هو: "إيهام الغوّاص في إيهام الخواص في بيان غلط الحريري". وقد صدر الكتاب في طبعة مستقلة في القاهرة بتحقيق د. أحمد طه حسانين سلطان، ١٩٩١م.

(١١٤) ترجمته في: بغية الوعاة ٢: ١٤٢، والعقد الثمين ٢: ٣٤٥، وهدية العارفين ٢: ٩٦، وكشف الظنون: ٧٤١، ومعجم المؤلفين ١٠: ٢٤١، والأعلام ٦: ٢٣٠.

(١١٥) بغية الوعاة ٢: ١٤٢، (ترجمة رقم ٢٣٧).

(١١٦) الأعلام ٦: ٢٣٠.

(١١٧) الأعلام ٦: ٢٣٠، ومقدمة التحقيق، ص: ٢٦. ويُنظر السرد المُفصَّل لآثاره في: حواشي ابن بري وابن ظفر على درة الغواص، ص : ٢٣ ٢٨ ، وعدّتها ثلاثة وثلاثون كتابًا.

ترك مؤلفات كثيرة، منها: حاشيته على الصحاح للجوهري، وشرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي، واللباب في الرد على ابن الخشَّاب[١١٨]، وحاشية على المعرَّب، وغيرها.

وقد نُشِر هذان الكتابان في قَرَن واحد، مع كتاب «درة الغوّاص » بتحقيق عبد الحفيظ فرغلي علي القرني، ومعهما كتب أخرى ونشرا مستقلين بتحقيق د. أحمد طاهر حسانين سلطان، دار الأمانة، القاهرة، ١٩٩١م.

٣- تكملة درَّة الغوَّاص: لأبي منصور، موهوب بن أحمد بن محمد الجَواليقي[١١٩]. إمام في فنون الأدب، واللغة والنحو، ثقة، صحب الخطيب التبريزي، وسمع الحديث من أبي القاسم بن البُسْري وأبي طاهر بن أبي الصقر. درَّس في المدرسة النظامية بعد التبريزي . من كتبه: شرح أدب الكاتب، وما تلحن فيه العامة، والمعرَّب، وتكملة درة الغوَّاص. توفي سنة ٥٣٩هـ [١٢٠].

نُشر كتابه «تكملة درَّة الغواص » مع كتاب « درة الغواص ».

٤- شرح درَّة الغواص: لقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري. ولد سنة ٩٧٩هـ، وعاش إلى سنة ١٠٦٩هـ. نشأ في بيت علم وأدب، ودرس النحو والفقه والفلسفة والطب على علماء عصره، وكان منهم خاله العلامة أبو بكر الشنواني (ت ١٠١٩هـ)، وكان يلقب بسيبويه زمانه، وأفاد من شمس الدين الرملي (ت ١٠٠٤هـ) الملقَّب بالشافعي الصغير، ومجدد القرن العاشر. من أهم تلاميذه عبد القادر البغداديّ (ت ١٠٩٣هـ) الذي عُرف بكتابه المشهور (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب).

ترك آثارًا كثيرة، منها: طراز المجالس، وكتاب السوانح، وشفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، وشرح درة الغواص في أوهام الخواص.

والكتاب مطبوع أيضًا ضمن مجموعة الدرة وحواشيها وشرحها، الصادر عن دار الجيل، ١٩٩٧م، بتحقيق عبد الحفيظ فرغلي علي القَرْني.

٥- بحر العوَّام فيما أصاب العوام[١٢١]: لمحمد بن إبراهيم الحنبليّ (ت ٩٧١هـ)، وهو أحد أربعة كتب دارت حول كتاب «درة الغواص » للمؤلف نفسه، والثلاثة الأخرى هي:

أ- الدرّ الملتقط في تبيين الغلط.

ب- عقد الخلاص في نقد كلام الخواص.

ج- سهم الألحاظ في وَهْم الألفاظ.

٦- تهذيب الخواص من درَّة الغواص [١٢٢] : لابن منظور (ت ٧١١ هـ) صاحب معجم«لسان العرب » المشهور. وهو ترتيب معجمي لمواد «درّة الغواص» .

ذكر ابن منظور بواعث وضع هذا الكتاب فقال: «...فإن الشيخ أبا محمد القاسم بن علي الحريري، رحمه الله، صنَّف كتاب (درَّة الغوَّاص في أوهام

(١١٨) قال محقق الحاشية : "... وقد أشيع خطأ أن هذا الكتاب صنعه ابن بري للدفاع عن الحريري في درة الغواص، والصواب أنه في الرد على انتقادات ابن الخشاب للحريري في مقاماته" مقدمة التحقيق ، ص : ١٥.

(١١٩) ترجمته في: معجم الأدباء: ٢٤٣٥، ترجمة رقم (١١٦٩)، وبغية الوعاة ٢: ٣٠٨ ، ترجمة رقم (٢٠٤٧).

(١٢٠) مقدمة التحقيق، ص: ١٩.

(١٢١) صدر الكتاب بتحقيق عز الدين التنوخي سنة ١٩٣٧م عن مجمع اللغة العربية، وأعيد طبعه مرة ثانية سنة ٢٠١١م .

(١٢٢) صدر الكتاب عن دار النشر للجامعات في القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ . ٢٠١١ م بتحقيق أحمد طه وهبة رضوان، وجاء في ٣١١ صفحة. وصدر بتحقيق د. شعبان صلاح ، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م.

الخـواص)، ذكر عن جماعة من أهـل الأدب أنهم وهموا في مواضع شـاركوا العامَّة في لحنهم فيها، وأتوا بما وضَعَ من قدرهـم وإن كان نبيهًا... غير أنـه وضعه بغـير تبويب... فضـاع فيـه المُطالع واشـتبهت عليه المطالع، وقد رتبته أنا على حروف المعجم، ليسهل الكشف فيه عمَّا يُسْتعجم... [١٢٣]».

وإذا تلبَّثنـا عند حاشـيتي ابن ظفر وابن برِّي لنسـتجلي موقفيهمـا مـن الأخطاء التي سـجَّلها الحريري عـلى معاصريه، تبيَّن لنـا أنهما خالفاه فصحَّحـا قضايا كثيرة مما حكـم عليها الحريري بالخطأ، وكأنهما كانا يدركان الطبيعة الاجتماعية للغـة، وأنها تنمو وتتطور بتطـور متكلميها. ولم يكن موقفهم هذا من تصحيحات الحريري جزافًا، إذِ التمسـوا لمـا صحَّحـوه وخالفوا فيـه صاحب «الدرَّة » أدلة وشـواهد من القـرآن الكريم أو من أوجـهٍ في القراءات القرآنية، أو مما وقفوا عليه من فصيح الكلام شـعرًا ونثرًا، أو ما استعمله الثقات من علماء العربية وحكَوه، أو مما جاء من لهجات القبائل العربية ووافق السماع والقياس[١٢٤].

أمـا شـهاب الديـن الخفاجـي شـارح«درة الغـوّاص» فيمثل التوسُّـع في المقيـاس الصوابي، فقـد جنـح إلى الاعتداد بكل المسـموع شـاذًا كان أم قليـلًا أو لهجـة لقبيلـة. وقـام منهجـه عامة عـلى التجوُّز مـن جهة، وعدم التسـليم بما خطّأه الحريري، إلى جانب الاعتماد على المجاز فيما ذهب إليـه، فإذا فقد الدليل المسـموع جنح إلى القياس. وكان يفتـح بـاب التأويـل على مصاريعـه. وإذا صادف مسألة من المسـائل لم يبتَّ فيها لافتقاده الدليل المؤيد لها [١٢٥]. وباختصار وتلخيص لمنهج عمله: كان يسعى إلى إجازة كل شيء، لاعتقاده أننا «لـو اقتصرنا في الألفاظ على ما اسـتعملته العرب العاربة والمسـتعربة حجّرنا الواسع، وعَسُرَ التكلُّم بالعربية على مَنْ بَعْدهم[١٢٦]».

وأمـا محمد بن إبراهيـم الحنبلي (ت ٩٧١هـ) وصاحـب كتـاب «بحر العـوّام فيما أصـاب فيه العوام » فكان ثمرة من ثمار الخفاجي في التوسُّع والاعتـداد بلهجـات القبائـل مـن دون النظر إلى درجـة فصاحتهـا، فهو يقبلها مـن غير تدقيق في المسـموع، ولا ضيرَ لديه في الشاهد المجهول مادام يؤكد ما ذهب إليه، ولا مشـكلة لديه في قبول المثل من غير النظر إلى عصره، فمال المستوى الصوابيّ لديه إلى التوسُّع، وجعل معياره أن يكون ورد فيه رأي لغوي ما، أو شاهد من غير الالتفات إلى درجة توثيقه. لقد غدا ممثل ردِّ العاميِّ إلى الفصيح[١٢٧].

---

(١٢٣) تهذيب الخواص، ص: ٦٣.

(١٢٤) حاشية ابن بري وابن ظفر، مقدمة التحقيق ، ص: ٤ . ويُنظر ، ص : ٥٠.

(١٢٥) يُنظر : شرح درة الغواص، ص: ٣٩ – ٤١ – ٥١، و ٥٧ ، و٦٩ ، و٨٩ ، و ١٥٢ . ومصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ٦٩.

(١٢٦) شرح درة الغواص، ص: ٧٠.

(١٢٧) مصنَّفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص: ٦٦.

النتائج:

وبعـد تلك الوقفات التفصيلية عند أبي محمد القاسـم الحريري وإسـهامه في حركة التصنيف الهادفـة إلى التنقيـة اللغوية، نسـتطيع أن نجمل بعض النتائج فيما يأتي:

١- يصعبُ- علميًّا وواقعيًّا- وَسْـمَ مجتمع لغويٍّ ما بالنقاء اللغويِّ الخالص.

٢- بدأ اللحن بمعنى مخالفة سَنَن العربية مبكِّرًا، وازداد فشـوهً وانتشـار بعد اختـلاط المجتمعات العربية الساعية إلى نشر الدين الجديد.

٣- بدأ اللحن المشـار إليه بالطبقة العامَّة، ثم شقَّ طريقـه إلى طبقـة الخاصـة من كتاب وشـعراء، وغيرهم.

٤- الحريـري هـو أوّل مـن افـترع التأليـف في لحـن الخاصة نتيجة ما رأى من تبلبل الأسـاليب واختلاط الدلالات.

٥- سـار التأليـف في معالجـة اللحـن والتنقيـة اللغوية في اتجاهين: اتجاه متشدِّد يمثله الحريري في كتابـه «درة الغـواص في أوهـام الخـواص ». واتجاه متسـمِّح كان ندًّا للحريري، فالتمسَ لكلِّ ما خَطَّأهُ بالحريري وَجهًا يَصحُّ به.

٦- ولَّـدَ كتـابُ الحريري «درَّة الغـواص » حركةَ تَصنيـفٍ جَعَلَتـهُ محورها، فكان ثمة حاشـيتان عليـه لابن ظفر وابن بـرِّي، وكتاب ابن منظور في ترتيبه، وكتب أُخرى في نقده وتجاوزه.

٧- اتـكأ الحريـري في معالجته «قضيـة التنقية اللغويـة » عـلى مؤيِّدات له من السـماع المتمثل في القرآن الكريم والحديث الشريف، والشعر والأمثال وأقوال علماء اللغة ورواياتهم.

٨- خالـف كلٌّ مِن الشـهاب الخفاجيُّ ومحمد بن إبراهيـم الحنبليُّ الحريـريَّ، وخَرَجَا على كثير مما خطَّـأ الخاصة فيه، ومالا بِهِ إلى التصحيح، وألْحبا سبيل الاستعمال اللغوي.

٩- لـم يكن للحريـري منهج يلتزم بـه؛ إذْ عالج المسـتويات اللسـانيات الأربعـة: بـدءًا بالصوت، فالبنيـة، فالتركيب ، لينتهي إلى الدلالة التي أخذتْ منهُ جهدًا أكبر من بقية المستويات.

المصادرُ والمراجعُ

- الأَعلامُ:خيرُ الدِّيـن الزِّركليّ (ت ١٣٩٤هـ)، دار العلم للملايين، بيروت.
- أَمـالي المُرتَضَى: عـليّ بن الحُسـين المرتضَى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٥٤م.
- إيهـامُ الغوَّاصِ في إيهـام الخواص في بيان غلط الحريـري: محمد بن عبد اللـه بن محمد بن ظفر المكِّـي الصقلي (ت ٥٦٥هـ)، تحقيق د. أحمد طه حسـانين سـلطان، مطبعة الأمانة، مـصر، ط ١، ١٩٩١م.
- بَحـرُ العوَّام فيما أصاب فيـه العوام: محمد بن إبراهيم الحنبليّ (ت ٩٧١هـ):
  * تحقيـق عـز الديـن التَّنُوخـيّ ، مجمـع اللغة العربيـة، ط١٩٣٧م ، وأعيـد طبعـه مـرة ثانية وراجـع هـذه الطبعـة د. محمـد مكي الحسـني الجزائري، البينة، دمشق، ٢٠١١م.
  * تحقيـق أحمـد طه وهبـة رضـوان، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
  * تحقيق د. شعبان صلاح، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- بغيـةُ الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الديـن السـيوطيّ (ت ٩١١هـ) ، حَقَّقَـهُ محمد أبو الفضـل إبراهيـم، المكتبة العصريـة، بيروت، ١٩٩٨م.
- البُلغـةُ في تاريخ أئمة اللغـة: الفيروزأبادي (ت

٨١٧هـ)، حَقَّقَهُ محمد المصريّ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- البيانُ والتَّبيين: أبو عمرو عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥.
- تَاجُ العروس: محمد مرتضى الزبيديّ (ت ١٢٠٥هـ)، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.
- تَأْويلُ مُشكل القرآن: ابن قتيبة الدينوريّ (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
- حَواشي ابنِ برِّي وابن ظَفَر: أحمد طه حسَّانين سلطان، دار الجيل ودار التراث، القاهرة.
- الخَصَائِصُ: أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.
- دِرَاسَاتٌ في فِقهِ اللُّغَةِ: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، نسخة مصوَّرة، جامعة البعث، حمص، ٢٠٠٣م.
- دُرَّةُ الغَوَّاصِ في أَوهَامِ الخَواص: أبو محمد القاسم بن علي الحريريّ (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق هنريش توربيكه، لايبزغ، ١٨٧١.
- ديوانُ النَّابغَة الذُّبيانيِّ، برواية ابن السكيت، تحقيق د.شكري فيصل، دار الفكر، ب. ت.
- سِرُّ صِنَاعَةِ الإعرَابِ: أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط ٣، ١٩٨٣م.
- شَذَرَاتُ الذَّهَب في أَخبَارِ مَن ذَهَب: ابن العماد الحنبليّ، عبد الحَيّ بن أحمد الحنبليّ الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ)، حَقَّقَهُ وعلَّقَ عليهِ محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- شَرحُ دُرَّةِ الغَوَّاصِ: شهاب الدين أحمد بن مُحمَّد بن عمر الخفاجيّ (ت ١٠٦٩هـ)، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٢٩٩هـ.
- طَبَقَاتُ النَّحوِيِّينَ واللُّغَوِيِّينَ: أبو بكر الزبيديّ (ت ٣٧٩هـ)، حَقَّقَهُ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م.
- العربيَّةُ: يوهان فك، ترجمة د.عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي،١٩٥١م. وطبعة أخرى ترجمة د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.
- العقدُ الثمين في تاريخ البلد الأمين: تقيّ الدِّين محمَّد بن أحمد الحَسنيّ الفاسيّ المكِّيّ (ت ٨٣٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- في فقه اللغة العربية: د. مسعود بوبو، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٥م.
- القاموسُ المحيطُ: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، مطبعة دار المأمون، القاهرة، ١٩٣٨م.
- الكتابُ :سيبويه,حقَّقَهُ عبد السلام هارون،عالم الكتب، بيروت، ب.ت
- كَشْفُ الظُّنُونِ: مصطفَى بن عبد الله القسطنطيني المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- لَحنُ العَامَّةِ في ضَوءِ عِلمِ اللُّغَةِ الحَديثِ: د. عبد العزيز مطر، دار المعارف، ط٢، ١٩٨١م.
- لَحنُ العَامَّةِ والتَّطَوُّرُ اللُّغَويّ: د. رمضان عبد التواب، مكتبة زهراء الشرق، ط١، ١٩٦٧م.
- لسانُ العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار المعارف، القاهرة.
- المَدخَلُ إلى فِقهِ اللُّغَةِ: د. أحمد محمد قدور، منشورات جامعة حلب، ٢٠٠٩م.
- مَرَاتِبُ اللُّغَوِيِّين: أبو الطيِّب عبد الواحد بن عليّ اللُّغويّ (ت ٣٥١هـ)، تَحقِيق مُحمَّد أبو

الفضل إبراهيم، مَكتبةُ نهضة مصر، القَاهِرَة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- المُزهرُ: جلال الدين السيوطيّ (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد جاد المولى وزميليه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ب.ت.
- مصنَّفات اللحنِ والتَّثقيف اللُّغويّ حَتَّى القَرنِ العَاشِرِ الهِجرِيِّ: د. أحمد قدور، وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٦م.
- مَعاني القرآن:الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، نسخة مصورة، عالم الكتب، بيروت. ب.ت.
- مُعجَمُ الأُدَبَاءِ: ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- معجم البلدان، ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، ب.ت.
- المُعجمُ العربيُّ، نَشأَتُهُ وتَطَوُّرُهُ، د. حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة، ب.ت.
- مُعجَمُ المُؤَلِّفينَ:عُمر رضا كحالة (ت ١٤٠٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب.ت.
- هَدِيَّةُ العارفينَ: إسماعيل باشا البغداديّ (ت ١٣٣٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٣٨- الوافي بِالوَفَيَاتِ: خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، ط. إستانبول،١٩٣١م.

الدورياتُ

مجلة معهد المخطوطات العربية: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة: د. عبد العزيز الأهوانيّ، مج ٣، ١٩٥٧م.